الكذب والنسيان

كما يراهما « أبو العلاء المعرى »

للأستاذ كامل كيلانى

— ٢ —

١ — قصر الكنية

ثم راح يعاتبه على قصر كنيته ، بعد أن امتدحه فى رسالته بأنه قد برأ نظمه من الضرورات التى يضطر إليها غيره من الشعراء ، فقال بعد بيان ممتع : فمن هجر هذه الضرورات وغيرها لو ذكرته لطال به الكتاب ، كالتقديم والتأخير ، والفرق بين المضاف والمضاف إليه .. فكيف استجاز أن يقصر كنية ابنه . أما السمة (أى : الاسم) فغيرها ، وأما الكنية فقصرها . فلله وإنا إليه راجعون . هذا أمر من الله ، ليس من ضعف الشعر ولا وهن القائل ، ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب ، واتفاق الردىء لمن سُمِّى وذكر .

١ — ضرورات الشعر

ثم قال وأبدع : ولا يقل سيدى الشيخ — أدام الله عزه — قصرت الشعراء ، قديمها ومولَّدها ، وأولها السالف وآخرها ، ما يجيزها الطَّبيعى[1] ومتكلَّفها .

فإنه لو كان استعمل ضرورة غير تلك لقبلت حجته . ولكنه اجتنب الضرورات بأسرها ، ورفض العيوب فلم يستعملها . وإنما عرض من ذلك لأنى قصير الهمة ، قصير اليد ، مقصور النظر ، (أى : مكفوف) مقصور فى البيت (أى : لازم له) محبوس فيه . فكفانى ذلك مع قصر الجسم حتى يضاف إليه قصر الاسم . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

١ — سبب النسيان

وما زال المرى ينتقل فى هذه الرسالة من طرفة إلى طرفة ، ومن دليل إلى دليل ، وهو يدش فى أثناء مديحه عتابه ، ويمزج شهد الكلام وصابه ، حتى كشف لنا عن سر ذهول صاحبه عن اسمه . فقال : وفى كتابه — أدام الله عزه — شكوى رعشة ، وما أعرف سبباً يؤدى إلى ذلك إلا أن يكون الافراط فى درس العلم ، فقد قال الشاعر :

أرعشتنى الخمر من إدمانها ... ولقد أُرعِشْتُ من غير كبر

والعجيب أن المرى كان لا يخشى من مصائب الدهر إلا أن تسلمه الشيخوخة إلى الذهول والنسيان وتفضى به إلى الهتر والخبال ، فقال فى لزومياته :

وما أتوقى والخطوب كثيرة ... يد الدهر إلا أن يَحُل بى الهُتْرُ

والهتر — وقاكم الله ووقانا شره — هو ذهاب العقل من كبر ، أو مرض ، أو حزن . ولقد ظل شيخنا محتفظاً بيقظة ذهنه ورجاحة عقله حتى لحن ذات يوم ، فتنبأله بعض خاصته بدنو أجله ، وصح ظنه فمات بعد أيام قلائل .

أما النسيان فيعلله المرى فى رسالة الغفران أبرع تعليل فى حوار ابن القارح والجنى أبى هدرش . يقول ابن القارح : « أيها الشيخ ، لقد بقى عليك حفظك » فيقول الجنى : « لسنا مثلكم يا بنى آدم يغلب علينا النسيان والرطوبة ، لأنكم خلقتم من حمإ مسنون ، وخلقنا من مارج من نار » .

١٣ — طول الأمد

وإذا علل أحد الشعراء نسيانه بفرط الحب ، فقال :

« وحبك قد أنسانى الشىء فى يدى ... وأذهلنى عن كل أمر أحاوله »

فإن المرى يرى أن طول الأمد كفيل بنسيان كل شىء ، فيقول فى لزومياته :

« كل ذِكر من بعده نسيانُ ... وتمرُّ الدهور والأزمانُ »

ويقول :

سيُنْسَى كل ما الأقوام فيه ... ويختلط الشآمى باليمانى

ويقول :

وسوف ننسى فنمسى عند عارفنا ... ومالنا فى أقاصى الوهم أشباحُ

ويقول :

سيسأل ناس ما قريش ومكة ... كما قال ناس ماجديس وماطسم

أرى الدهر يفنى النفس بفنائه ... ويمضى فما يبقى الحديث ولا الرسمُ

---

(١) هذه الكلمة نص عبارتى يقطع بأى كلمة طبيعى هى الصواب وليست طبعى .

١٤ — الهول والفزع

والمعرى يرى أن الهول والفزع ينسيان أذكر الناس وأذكاهم ، فنرى فى غفرانه صاحبه ابن القارح يسأل الخليل بن أحمد فى الجنة عن أبيات ينسبها الرواة إليه فيقول الخليل :

« لا أذكر شيئاً من ذلك ، ويجوز أن يكون ماقيل حقاً »

فيقول ابن القارح : « أنسيت يا أبا عبد الرحمن وأنت أذكى العرب فى عصرك ؟ » فيقول الخليل : « إن عبور الصراط ينفض الخلد مما استودع » .

ونرى أبا العلاء يتخيل صاحبه ابن القارح وهو يسأل « تميم ابن أُبَىَ » عن معنى كلمة المرانة التى وردت فى قوله :

« يا دار سلمى خلاءً لا أُكلِّفها
إلا المرَانةَ حتى تسأم الدّينا »

فيقول تميم : « ما أردت بالمرانة فقد قيل إنك أردت اسم امرأة وقيل هى اسم أمة ، وقيل العادة » فيقول تميم : « والله ما دخلت من باب الفردوس ومعى كلمة من الشعر أو الرجز . وذلك أننى حوسبت حسابا شديداً ، وقيل لى كنت فيمن قاتل « على بن أبى طالب » وانبرى إلى النجاشى الحارثى ، فما أفلتُّ من اللهب حتى سَفعتنى سفعات . وإن حفظك لبُقْيَ عليك . كأنك لم تشهد أهوال الحساب الخ .

١٥ — هول الموت

أما هول الموت فينسى كل شىء ويذهل الشجاع عن كل شىء . قال المعرى :

والموت ينسى كَمِيَّ الحرب صارمه
ودرْعهُ وفتـــاة الحى يجْـولها

وقال :

وأظننى أن لست أذكر بعده ما كان من يُسر ومن إملاق

١٦ — نشوة الخمر

وقد رأينا — فيما سبق — كيف رأى فى الخمر مذهلا له عن كُرْبته ، منسياً لغربته ، فتمنى أن تصبح حلالا لتذهله عن همومه وأحزانه ، فلا يفوتنا أن نذكر قوله فى لزومياته :

« أيأتى نبى يجعل الخمر طِلْقة فتحمل ثِقلا من هموى وأحزانى
وهيهات لو حلت لما كنت شاربا مخففة فى الحكم كفَّة ميزانى »

١٧ — شعر آدم

والمعرى يقول فى لزومياته فى معرض الإشارة إلى نسيان الشيخ آدم أبى الخليقة :

احتج فى الغى بالنسيان والدهم
وقد غووا بادكار ، لا أقول : نَسُوا

ويقول فى غفرانه ، متخيلا صاحبه ابن القارح وقد عمد لحمله فى الجنان ، فيلقى آدم عليه السلام ، فى الطريق ، فيقول : يا أبانا صلى الله عليك ، قد رُوى لنا عنك شعر ، منه قولك :

نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا وإليهـــا نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه والنحس تمحوه ليالى السعود »

فيقول : « إن هذا القول حق . وماتلفه إلا بعض الحكماء . ولكنى لم أسمع به إلا الساعة .

فيقول : « فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت فقد علمت أن النسيان متسرع إليك . وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوة فى قرآن محمد (ص) : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » وقد زعم بعض العلماء أنك سميت إنسانا لنسيانك ، واحتج على ذلك بقولهم فى التصغير : « أُنَيْسيان » وفى الجمع أناسى . وقد روى أن الإنسان من النسيان ، عن ابن عباس . وقال الطائى :

لا تنسَيَن تلك العهود ، وإنما سميت إنســـانا لأنك ناسى

فيقول آدم (ص) أبيتم إلا عقوقا وأذية : إنما كنت أتكلم العربية وأنا فى الجنة . فلما هبطت الأرض نقل لسانى إلى السريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت . فلما ردنى الله سبحانه وتعالى إلى الجنة عادت على العربية . فأى حين نظمت هذا الشعر . فى العاجلة أم الآجلة . والذى قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو فى الدار الماكرة . ألا ترى قوله : « منها خلقنا وإليها نعود » فكيف أقول هذا القول ولسانى سريانى . وأما الجنة قبل أن أخرج منها فلم أكن أدرى بالموت فيها ، وأنه مما حكم على العباد . وأما بعد رجوعى إليها فلا معنى لقولى : « وإليها نعود » لأنه كذب لا محالة . ونحن معاشر أهل الجنة خالدون مخلدون . فيقول : « إن بعض أهل السير يزعم أن هذا الشعر وجده يعرب فى متقدم الصحف السريانية ، فنقله إلى لسانه . وهذا لا يمنع أن يكون . وكذلك يروون لك — صلى الله عليك — لما قتل قابيل هابيل :